

تعليقات ومناقشات

التبيين في فوائذ القدماء والعصريين

الأستاذ صبحي البصام

شفيلد _ إنجلترا

فائذة الأصمعي ومن تابعه فيها

١- الرواية الصحيحة لبيتين: في "جمهرة أشعار العرب" (ط - صادر ٢٥٦) قصيدة لأعشى باهلة يرثي فيها المنتشر بن وهب الباهلي، منها قوله فيه:

لا يتأرى لما في القدر يرقبه ولا يعرض على شرسوفه الصقرُ
وقوله فيه بعد ثلاثة أبيات:

لا يغمز الساق من أين ولا نصب ولا يزال أمام القوم يقتفرُ

ومؤلف جمهرة أشعار العرب، وهو أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي، من علماء المئة الثانية. وهو أقدم من روى هذه القصيدة. والمرثي كما في البيت الأول لا يتحسب منتظراً أن ينضج ما في القدر ليأكله وهو يأنف أن يظهر جوعه كأنه مصاب بالصقر^(١). والمرثي، كما في البيت الثاني، لا يشعر بتعب يحوجه إلى غمز ساقه، لذلك تراه أمام أصحابه عند اقتفارهم الأثر في الصحراء. وواضح أن رواية البيتين المذكورين صحيحة، وأنهما ليسا مداخلين كما سيأتي من قول الصغاني فيهما، لأن (جمهرة أشعار العرب) أقدم مرجع للقصيدة التي

(١) في تهذيب اللغة ١٦٧/١٢ أن روية قال في الصفر: (حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس). قلت: وقوله موافق للحقيقة ولما يقوله الطب الحديث. وفي العراق يقال للصفر الدودة الوحيدة.

منها هذان البيتان، ثم إن عجز كل منهما يتم صدره في المعنى، وهو صالح له صلاح المفتاح لقله. ومن روى الشعر على وجه الصحة كما في جمهرة أشعار العرب:

مؤلف كتاب العين (١٣/٧ صفر) (٣٠٣/٨ وار) - روى البيت الأول.

وابن سلام الجمحي (طبقات فحول الشعراء ٢١١/١) روى البيت الثاني.

وابن دريد (جمهرة اللغة - ر ص ف) روى البيت الأول.

والقالي (الأمالى ٢٠١/٢) أيضاً روى البيت الأول.

والجوهري (الصاح - صفر) أيضاً روى البيت الأول.

وابن الشجرى (مختارات شعراء العرب ٣٧) روى البيتين معاً، وأظنه نقلهما من جمهرة أشعار العرب.

والجواليقي (شرح أدب الكتاب ١٤٩)، أيضاً روى البيتين معاً ولكنه سها فقدم الثاني على الأول.

٢- فائنة الأصمعي ومن تابعه فيها: وأنشد الأصمعي البيتين في الأصمعيات (٣٣ ط. برلين) فكانا مداخلين على هذا النحو:

لا يتأرى لما في القدر يرقبه ولا يزال أمام القوم يقتفـرُ
لا يغمز الساق من أين ولا نصب ولا يعض على شرسوفه الصقـرُ

وظاهر الحال أن الأصمعي أول من وهم في إنشاد هذا الشعر إذ جعله مداخلاً، فصار عجز البيت الثاني عجزاً للبيت الأول، وصار عجز البيت الأول

عجزاً للبيت الثاني.

ثم وهم ابن السكيت إذ أورد البيت الأول في إصلاح المنطق (١٩٩) مَدَاخِلًا، وصرّح بنقله عن الأصمعي.

ووهم الجاحظ في البخلاء (١٠٧) إذ أورد البيت الأول كذلك.

ووقع الطبري في الوهم نفسه في (جامع البيان ٨١/١٤ بولاق).

ووهم الصغاني في التكملة والذيل والصلة (٧١/٣ - ص ف ر) في تعليقه على إنشاد الجوهرى للبيت الأول في الصحاح وهو:

لا يتأرى لما في القدر يرقبه ولا يعرض على شرسوفه الصقرُ

بأن قال: (الإنشاد مداخل والرواية:

لا يتأرى لما في القدر يرقبه ولا يزال أمام القوم يقتقرُ
لا يغمز الساق من أين ولا نصب ولا يعرض على شرسوفه الصقرُ)

هكذا، أي أنه اعتمد رواية الأصمعي في الأصمعيات مع أن رواية الأصمعي هي المداخلة وإنشاد الجوهرى صحيح.

وممن وهم في ذلك من العصريين الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي في أمالي القالي (٢٠/٢) لاستناده إلى رواية الأصمعي، وأستاذ لم يذكر اسمه بل ذكر أنه (مصحح لسان العرب في بولاق) وذلك في شرح أدب الكتاب للجواليقي (١٤٦)، والأستاذان مطاع الصفدي وإيليا حاوي في موسوعة الشعر العربي (٢٨٦/٣) ومعهما المراجع الأستاذ خليل حاوي.

وإن كان ظاهر الحال أن الأصمعي أول من جعل البيتين مداخلين، ثم جازت المداخلة على ابن السكيت والجاحظ، ثم جازت على غيرهما، فالإنصاف يقتضي أن أستدرك فأقول: كان الأصمعي من أبصر العلماء في رواية الشعر وتمييزه وفهمه، وجاز أن يكون بريئاً من المداخلة، خصوصاً، إذا كان نقل البيتين من القصيدة، فبينهما ثلاثة أبيات لا تورط في مداخلة، إلا أن يفرض ذلك إبان تبييض لم يعقبه مراجعة. فإن كان بريئاً منها جاز أن يكون ناسخ كتابه وقع فيها ثم تابعه فيها من تابعه. وابن السكيت وإن كان من أركان اللغة يجوز أن يغم عنه ما عدل عن معناه الأصلي من ذلك الشعر. وإن كان الجاحظ أدبياً كبيراً فإن عجلته في تأليف بعض كتبه ربما عاقته عن التثبت في بعض الأمور. ومن شاء توضيحاً لما قلت في ابن السكيت والجاحظ أمكنه إن شاء الله أن يقرأ استدراكي على ابن السكيت في هذه المجلة (العدد ٣٨ والعدد ٤٨) واستدراكي على الجاحظ في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد ٥٩ ج ٤).

من فوائت ابن سيدة

عُرف ابن سيدة (ت ٤٥٨هـ) عالماً من علماء العربية الأجلاء. ألف كتباً هي نور لدارسي اللغة والنحو والأدب. وهذا حق لاشك فيه، ولكنه حق يحتاج إلى تمام، ومن تمامه أن يعرف ما على هذا العالم الجليل كما عُرف ماله. كنت قرأت كتابه المحكم والمحيط الأعظم سنة ٦٨ في العراق قراءة عجلان، ثم قرأته سنة ٧٨ في خزانة كتب جامعة درم من إنجلترا قراءة مكث وهينة، فوجدت فيه أموراً يسيرة فيها نظر فدونتها في دفترتي مختصرات معان ثم تناسيتها. وهذا إبان تحرير الأهم منها معززة بالشرح والشواهد. وسأذكر في آخر تلك الأمور أمراً فيه نظر وقفت عليه مصادفة وأنا أقلب أوراقاً من كتابه المخصص. وأسأل الله وأنا محرر ذلك أن يجعلني مجانباً للوعث، ملازماً للجَدِّد، بريئاً من المدالسة، مستتيراً بالعلم، لكي لا أغمز بمثل العامة القديم، ذنبه قش ويتحرش بالنار.

١ - أسلوبه في انتقاد العلماء: انتقد ابن سيدة في خطبة معجمه المحكم على أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) شيئاً في اللغة، وعض من علمه، زاعماً أن ذلك منه يدل: (على ضعف المنة وسخافة الجنة) (٤/١). وعلق على تفسيره لكلمة، فقال ساخراً منه: (وصلى الله على نبينا محمد القائل إن من البيان لسحراً، وأين هذا من قولي بدل هذه العبارة:...) إلى آخر قوله (٨/١). وانتقد على أبي عبد الله بن الأعرابي (ت ٢٣١هـ) شيئاً في اللغة، ووقع فيه، زاعماً أن ذلك منه يدل على (قلة التفصيل والبعد عن التحصيل والجهل بالتنتيج والتقيح) (٤/١). ومضى يقول: (فأين علم أبي عبد الله ابن الأعرابي بأسرار هذه الصيغ من علمي أو فهمه لغوامض تأولها من فهمي؟) (٤/١). ثم قال: (ولينظروا نحوي فمن أبصر فقلما تخفى نكاء، ومن عشي فعائر أن لا تراني مقلة عمياء) (١٦/١). وقال: (أنا الجواد الخوار المخترق للميدان) (١٦/١). وكانى بالطبيب الأديب داود الأنطاكي اقتدى به في فخره هذا، ولكنه زاد عليه، وذلك في قوله، كما في سلافة العصر، (لو رأني ابن سينا لوقف ببابي، أو ابن دانيال لاكتحل بتراب أعتابي)، وكان الأنطاكي كيف البصر كابن سيدة. إن استطالة ابن سيدة على أبي عبيد القاسم بن سلام وابن الأعرابي عمل لا يخالطه صواب، وقشور ليس فيها لباب - فهما قد فازا من العلم بالقسم الأجزل والنصيب الأوفر. ولو كان ابن سيدة في زمانهما وأتاهما فكأثرهما لجاز أن ينكئي مكثوراً، أو غالبهما لجاز أن يرتد مغلوباً. لقد تعلم من علمهما ما أعان على تقويم قناته، وصقل مرأته، ورفع مكانه، وتفخيم شأنه، فهما من شيوخه على بعد ما بينهما من زمان. وكان محقوقاً أن يختصهما بالإجلال والتوقير. والعلماء وهو منهم، غير معصومين من الخطأ، فربما أخطأ المهتدي قصده، وأصاب الضال رشده. ومن نبه منهم على خطأ لبعضهم، وجعله من الفضائح، وفضل علمه على علم المخطئ فقد شطب عن وقار العلم، ونكب عن فضيلة التواضع. وقلة من الأدباء تعلم أن ابن سيدة لما ألف كتابه المخصص اتخذ من كتاب أبي عبيد القاسم بن

سلام (الغريب المصنف) أساساً لكتابه. وكتاب ابن سلام الآن مخطوط في قريب من ٧٠٠ صفحة. فأخذه ابن سيده كله، بمادته وأبوابه وفصوله، ثم أضاف إليه كثيراً من كتب أخرى حتى استوى له كتابه (المخصص). فهو إذ أخذ علماً من ذلك العالم وذمه كان كمن يأكل طعاماً لذيقاً من كريم (ثم يبسط لسانه فيه ويسترنذل طعامه)، أما افتخاره بأنه كالشمس التي قلما تخفى، وكالجواد الخوار فشيء مستبدر، غير معيج عليه، ولا محفول به. وأن يحسن المرء فيطريه الناس خير من أن يحسن فيطري نفسه في عجب وتيه. بل من أحسن وشعر أن الله عالم بإحسانه فقد استغنى عن إطراء الناس له فضلاً عن إطرائه لنفسه. وتمثله بقول المتنبى (فعاذر أن لا تراني مقلة عمياء) كان خليفاً به أن يجتنبه لموضع عماء.

٢- قوله (نمواً): وقال ابن سيده في خطبة معجمه المحكم (زاد الله عزه علواً، وملكه نمواً، ولا أسارت له الأيام عدواً) (١٨/١). فاستعمل (نمواً) من (نما) ينمو) بالواو، واللغة الفصحى (نماء) أو (نمياً)، وندر قولهم (نمي)، وذلك كله من (نمي ينمي) بالياء. أما (نما ينمو) فلغة كانت لبعض العرب ثم انتشرت على أسنة المولدين وهي ليست بذات قدر في جنب (نمي ينمي)، فإن كان ابن سيده استعمل (نمواً) للمضي في السجع فالسجع مع (نماء) على أنه مصدر نمي ينمي لم يكن عسراً عليه، كأن يقول (زاد الله عزه علاءاً وملكه نماءاً). ولو شاء أن يتم العبارة بسجعة أخرى لم يعسر عليه ذلك كأن يقول (وقطع عدوه أشلاء)، وكان ثعلب نبه في كتابه (الفصيح) على أن نمي ينمي هو الفصيح. وعلق ابن درستويه على ذلك في كتابه (تصحيح الفصيح) بقوله: (وإنما ذكر ثعلب نمي ينمي لأن العامة تقولها بالواو ينمو وهي لغة لبعض العرب وليست بخطأ ولكن الياء أعلى وأعرف في كلام الفصحاء. ويقولون في مصدره أيضاً النمو بالواو) (١١٧/١). وأنا ذاكر ههنا شواهد كثيرة لنمي ينمي، وذلك لسببين أحدهما أن القارئ قد

يستغرب تفضيل نمي ينمي لغلبة نما ينمو عليها في لغة المولدين ومن جاء من بعدهم حتى عصرنا هذا. والسبب الآخر أني أريد أن أجعل من الشواهد سندي في استدراكي على ابن سيدة، وفي استدراك لي أت على كتاب العين فخرانة الأدب.

قال الأعشى (ديوان الأعشى الكبير ٤١٩):

فهب لي نوبى فدتك النفوس ولا زلت تئمي ولا تنقصُ

وقال كعب بن زهير (الديوان: ٥١ ش. السكري):

والمرءُ والمالُ ينمي ثم يذهبه مرّ الدهور ويفنيه فينسخُ

وقال الحارث بن وعة الجرمي (أمالي القالي ٢٦٤/١):

أن يأبروا نخلاً لغسيرهم والشّيء تحقره وقد ينمي

وقال أبو زيد الطائي (جمهرة أشعار العرب ٢٦٣):

يعتلي الدهر إذ علا عاجز القو م وينمي للمس تتم الحميد

وقال عبد المسيح بن عسلة في الخمر (المفضليات ٥٥٧):

وتبيّن الراي السفيفه إذا جعلت رباح شمولها تئمي

وقال قيس بن الخطيم (معاهد التصحيح ١/١٩٣):

ولا يُعطى الحريمُ غنى بحرصٍ وقد ينمي على الجود الثراءُ

وقال شريح اليربوعي (النقائض بين جرير والفرزدق ٨/٢):

بأبناء عتاب وكان أبوهم إلى الشرف الأعلى بأبائسه ينمي

وقال جميل بثينة (الشعر والشعراء ١/٤١٠):

علقت الهوى منها وليداً ولم يزل إلى اليوم ينمي حبها ويزيدُ

وقال الراجز (جمهرة اللغة ٣/٢٦٨ م ن):

يا حبة ليلي لا تغيرِ وازددِ وانم كما ينمي الخضابُ في اليدِ

وقال غدير بن ناهض (التعليقات والنوادر للهجري ٢/٢٢٣):

فيصبح باليه جديداً ونبثُة أفيفاً وينمي ماله حين يسرح

وقال أبو نخيلة في رجز له (الجليس الصالح الكافي ١/٥٢٩):

في جسد ينمي وعقل يجري

وهو في الأغاني (ج ١٩ - أبو نخيلة) و(اللسان ٨/٣٩٠): ذا حمق ينمي-

وأشدد الأصمعي لأعرابية (العقد الفريد ٢/٢٦):

كنا كغصنين في جرثومة بسقا حينما على خير ما ينمي به الشجر

ومن رسالة لأكنم بن صيفي (جمهرة رسائل العرب ١/٢١): (فإن البر ينمي عليه العدد).

وفي خطبة لسهل بن عمرو في الرسول ﷺ عند وفاته (الأوائل ق ١/٨): (فلم يزل أمره ينمي ويتصاعد).

أما لغة (نما ينمو نموا) فلم أجد لها شاهدا في شعر القدماء المستشهد بلغتهم، وذلك على تفتيشي عنه منذ أكثر من خمسين سنة. أما في نثرهم فنادر جدا، ومن هذا النادر ما جاء في عيون الأخبار (٢/٧٦) من أن امرأة قالت للرسول ﷺ في غنمها (إنها لا تنمو). ولقولها احتمالان، أحدهما أنها نطقت بالفعل بالواو، أي بلغتها، وهي اللغة التي زوى ثعلب وجهه عنها في فصيحته وقال فيها ابن درستويه إنها لغة لبعض العرب. والاحتمال الآخر أن تكون قالت (لا تنمي) بالياء ثم روي قولها أيام المولدين بالواو لغلبة الواو في هذا الفعل على الياء على ألسنتهم. ويدل على غلبة الواو قول أبي تمام (الديوان):

إن السهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

وقول الجاحظ (رسائل الجاحظ ١/١٠٥): (فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو)، وقول الثعالبي في خطبة كتابه (التمثيل والمحاضرة ٤): (وزاد دولته شبابا ونموا، كما زادت في السن علوا).

فائقة كتاب العين وخزانة الأدب:

وأستطرد لأنبه على فائنتين: إحداهما: جاء في كتاب العين (٣٨٤/٨ نما):
(نما الشيء ينمو نمواً ونمي ينمي نماء أيضاً... ونما الخضاب ينمو نمواً إذا زاد
حُمْرة وسواداً)، هكذا، بجعل المادة (نما) بالألف لا (نمي) بالياء. وبدأ محشي
المادة بقوله: (نما الخضاب ينمو نمواً إذا زاد حمرة وسواداً) فسي حين نرى
الراجز استعمل للخضاب اللغة الفصحى وهي بالياء في قوله المذكور آنفاً وهو:
(وانم كما ينمي الخضاب في اليد). ويبعد عندي أن يكون للخليل الفراهيدي يد في
كتب المادة (نما) بالألف أو في تحشيتها على الوجه المذكور. وكنت قرأت كتاب
العين بأجزائه جميعاً فوجدت فيه ما يؤيد قول ثعلب فيه في كثير من المواطن،
وقول ثعلب هو كما في المزهرة للسيوطي (٧٦): (إن وقوع الغلط فيه جاء من أن
الخليل رسمه ولم يحشه). والفائنة الأخرى: أن عبد القادر البغدادي أنشد في
خزانة الأدب (٣٦٨/٤) بيت الأعشى المذكور آنفاً وفيه: (ولا زلت تنمو ولا
تنقص) بالواو من (تنمو) والصواب (تنمي) بالياء وذلك كما في طبعات ديوان
الأعشى وسائر الكتب المعتمدة. ولم ينبه على ذلك محققا الكتاب وهما الأستاذان
الجيلان أحمد تيمور باشا وعبد العزيز الميمني. فعبد القادر البغدادي في إثباته
(تنمو) بدلاً من (تنمي) كان كابن سيدة متأثراً بلغة من سبقه من المولدين كآبي
تمام والجاحظ والثعالبي.

٣- قوله (أهو هرب... أم العين وضع): وقال ابن سيدة في المحكم
(٨٣/٢ ص ق غ): (فلا أدري أهو هرب من الأكفاء أم الغين في صقغ وضع؟).
والوجه أن يقم (هرب) على (هو) فيقول (فلا أدري أهرب هو من الأكفاء...)،
وذلك أن (هو) معلوم فلا حاجة إلى تقديمه في السؤال، وإنما الحاجة إلى تقديم
المجهول فيسأل عنه وهو (هرب)، ويذكر ما يعادله وهو (أم الغين في صقغ
وضع). ويقال: أزيد قام أم عمرو؟ فيقدم أحد الاسمين المسنول عنهما، ويؤخر

الآخر وهو عديله، ولا يقتم (قام) لأن القيام معلوم حصوله، وإنما يراد السؤال عن قام. وهذه لغة القرآن ولغة القدماء الفصحاء. قال تعالى: (أقرب أم بعيد ما توعدون) (الأنبياء/ ١٠٩) ولم يقل: أما توعدون قريب أم بعيد. وقال (الذكريين حرم أم الأنثيين) (الأنعام/ ١٤٣)، ولم يقل: أحرّم الذكريين أم الأنثيين. وقال: (أهم أشد خلقاً أم من قد خلقنا) (الصافات/ ١١) ولم يقل: أشد خلقاً هم أم من قد خلقنا. وقال (أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) (الفرقان/ ١٧)، ولم يقل: أضللتم أنتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل. ومن ذلك قول بعضهم يهجو خالد بن عبد الله القسري (شرح أدب الكتاب للجواليقي ٢٩٧):

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً أبظراء أم مختونة أم خالداً؟

وقول نصر بن سيار (مروج الذهب ٢٥٥/٣):

أقول من التعجب ليت شعري أيقاظ أم نيام؟

لذلك قال سيبويه بتقديم المسئول عنه (الكتاب ٢٢/١) وذلك قوله (وتقول أسفياً كان زيد أم حليماً؟ وأرجلاً كان زيد أم صبيئاً؟ تجعلها لزيد لأنه إنما ينبغي لك أن تسأله عن خبر من هو معروف عنده). وقد أحكم الشّد سيبويه بقوله (ينبغي) ولكنه نسي فأرخی من شده في موضع آخر من كتابه (٤٨٢/١ بولاق)، قال: (ولو قلت ألقيت زيدا أم عمراً كان جائزاً حسناً.. وإنما تقديم الاسم ههنا أحسن). أراد أن الأحسن: أزيداً لقيت أم عمراً؟ فغير لفظه من (ينبغي) الدال على الفصيح إلى (الأحسن). وممن عدل عن الفصيح أو عن الأحسن محمد بن حبيب، قال في المحبر (١٢٣): (حتى تعلم أي تائبة هناك أم لا) والفصيح أو الأحسن: أتاينة هي؟ والزمخشري، قال: (ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل) (الكشاف. ق ٢ ص - ١٥٦ ط. حيدر آباد)، والفصيح أو الأحسن: أحال

هو...؟ وغريب أنه ذكر عبارته هذه في تفسيره لقوله تعالى وفيه الفصح أو الأحسن (قل إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا). والحريري، قال في المقامة السمرقندية (فقلت والله ما أدري، أعجب من تسليك عن أناسك... أم من خطابتك مع أناسك) أراد: أمن تسليك عن أناسك أعجب... أم من خطابتك مع أناسك. على أن الحريري كان في موضع سجع وللسجع ضروراته. وقال أستاذي وصديقي اللغوي الدكتور مصطفى جواد رحمه الله: (أهو مكمل أم إكمال أم مستكمل) (قل ولا تقل - بجزأيه ٩٧) وهو يريد: أمكمل هو؟ ومن أحوجته صنعة الشعر إلى أن يعدل عن الفصح أو الأحسن عمر بن أبي ربيعة، وذلك في قوله:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكرُ غداة غد أم رائح فمهجّر؟

ولو كان أعانه وزن الشعر لقال: أغاد أنت من آل نعم... أم رائح، بتقديم (غاد) على (آل نعم) - ولو كان مراده تقديم (آل نعم) لجعل لهم عديلاً، كأن يقال في النثر: أمن آل نعم أنت غاد... أم من آل ليلي؟ وإن كان ابن أبي ربيعة يعمل شعراً له ضروراته فقد كان ابن سيده يكتب نثراً ولغة، ومن أحكامهما استعمال اللغة الفصحى.

وإن كان تعبير ابن سيده مفضولاً في علم النحو فهو مجفوف في علم البلاغة. فالبلاغيون يرونه غير بليغ لأن الهمزة في نحو تعبيره عندهم للتصور وهو إدراك المفرد. يريدون أنك إذا قلت: (أزيد عندك أم عمرو؟) كان قولك بليغاً. فإذا قلت: (أعندك زيد أم عمرو؟) كان قولك غير بليغ، لأن المخاطب عند سماعه (أعندك زيد أم) قد يظن أنك تسأله عن موضع زيد، فيتوهم أنك ستم قولك بعدلٍ لـ (عندك)، كان تقول (عند أبيه) فإذا هو يُبغث بـ (عمرو) - فهذا البغث هو كالعثرة في مسار فكر السامع وهو الذي يجعل قولك غير بليغ.

تتبيه: في مجلة البلقاء الخاصة بجامعة عمان الأهلية (المجلد ١ العدد ٢ السنة ١٩٩٢ الصفحة ٣٨) قول لي في نحو عبارة ابن سيدة، استدركت فيه على الجاحظ والأزهري والتوحيدي والبطلبوسي والأعلم الشنتمري. وذكرت شواهد كثيرة لتعزيز رأيي. على أن قولي ههنا أو في وأتم. ومن شاء أن يقف على ما قلته في تلك المجلة رجع إليها إن شاء الله.

٤- قوله (بل إنما): وأنتقل الآن إلى كتاب (المخصص) لابن سيدة. قال ابن سيدة في خطبة كتابه هذا (٤/١): (ولا نريد بذلك أن هذا أمر خفي بل إنما نحيل فيه على أمر واضح). والفصيح أن يقول (بل نحيل فيه على أمر واضح) أو: (وإنما نحيل فيه على أمر واضح) دون أن يدخل (بل) على (إنما). وكنت في مقالة لي نشرتها في مجلة مجمع دمشق للغة العربية (مج ٥٩ ج ٤ سنة ١٩٨٤) عنونها (الملاحظ في حيوان الجاحظ) خطأت المولدين القدماء في قولهم (بل إنما) وأنا ذاكر ههنا موجزها: إن استقراتي منظوم العرب ومنثورهم في الجاهلية وصدر الإسلام يدل على عدم (بل إنما). وإنما تدخل (بل) و(إنما) على الجملة منفردتين. فمثل (بل) قوله تعالى (وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله) (النساء/ ١٥٧) ولم يقل: بل إنما رفعه الله، وقول عمرو بن شأس:

لسنا نموت على مضاجعنا بالليل بل أدواؤنا القتل

ولم يقل: بل إنما أدواؤنا. وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه (البيان والتبيين ٥٤/٢): (ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً) ولم يقل: بل إنما كان به. ومثل (إنما) قوله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) (البقرة/ ١١) ولم يقل: بل إنما نحن مصلحون. وقول الحجاج (البيان والتبيين ١٣٨/٢): (إني سمعت تكبيراً لا يراد به الله إنما يراد به الشيطان)، ولم يقل: بل إنما يراد به. وقالت أعرابية (محاضرات الأدباء ١٣٨):

تالله ما ذلك في أيدينا وإنما يكره ما أعطينا

ولم تقل: بل إنما يكره، مع أن (بل إنما) أجود لوزن رجزها، ذلك بأن إدخال (بل) على (إنما) ليس من لغتها.

وقد وجدت أن أقدم من استعمل (بل إنما) الجاحظ، وذلك في مواضع من كتابه الحيوان كقوله (٤٢/٥): (لم يكن لقائل أن يقول: ذلك الهواء من شأنه الصعود بل إنما ينبغي أن يقول...)، وابن الرومي وكان معاصراً للجاحظ وذلك في قوله (الديوان ص ٢٧٦):

ما جرب المرء داء جلدته بل إنما داء عرضه جريئة

وقد قعدت من مقالتي (الملاحظ في حيوان الجاحظ) المشار إليها آنفاً ثلاث قواعد في (بل) و(إنما) أولاً أن العرب لم تقل (بل إنما). فإن لم يقتنع القارئ بهذا الموجز فليقرأ مقالتي المشار إليها، وهي مطولة فيها تفصيل وتوضيح وإقناع.

هذا وأنا أستحب التدرج اللغوي، خصوصاً الذي بدأ به قدماء المولدين. أما انتقادي على ابن سيده الأمور التي ذكرتها فمشاكل لمنزلته في اللغة ولكتبه، وللمقام الذي أقام نفسه فيه في خطبة كتابه المحكم إذ كان يغلط غيره ويسخر ويفخر.

قول العصريين: سلم به

استعمل القدماء من فصحاء وغيرهم (سلم) بمعنى (اعترف)، وعدوه بنفسه دون الباء. فإذا قيل: لا أسلم رأيك، كان المراد: لا أتعرف برأيك. وإذا قيل: لو

سَلَمْنَا رَأْيَكَ جَدَلًا، كَانَ الْمُرَادُ: لَوْ اعْتَرَفْنَا بِرَأْيِكَ جَدَلًا. وَلِنَدْرَةِ تَعْدِيَةِ (سَلَمَ) بِنَفْسِهِ فِي الْعَصُورِ الْحَدِيثَةِ، وَلِغَلْبَةِ تَعْدِيَتِهِ بِالْبَاءِ أَعَدَدْتُ هَذَا الْمَبْحَثَ:

١ - شَوَاهِدُ (سَلَمَهُ):

وَهَذِهِ طَائِفَةٌ مِنْ نصوص قَدِيمَةٍ تُشْهِدُ لَمَا أَقُولُ:

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ السَّيْرَافِي (المقَابسات ٨٠): (فَذَلِكَ شَيْءٌ مُسَلَّمٌ لَهُمْ) وَلَمْ يَقُلْ: مُسَلَّمٌ بِهِ لَهُمْ.

وَقَالَ مَسْكُوبِيهِ (الهوامل والشوامل ٢١٥): (إِنَّ مِنَ الْأَصُولِ الَّتِي لَا مَنَازَعَةَ فِيهَا وَهِيَ مُسَلَّمَةٌ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ) وَلَمْ يَقُلْ: مُسَلَّمٌ بِهَا.

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيدِي (المقَابسات ١٥٠): (هَذَا مُسَلَّمٌ عِنْدَ مَنْ أَلْفَ شَيْئًا مِنْ الْفَلَسَفَةِ) وَلَمْ يَقُلْ: مُسَلَّمٌ بِهِ.

وَقَالَ الزَّجَاجِي (الإيضاح في علل النحو ٦٢): (لَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ دَلِيلَهُ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ مَا يُنَازَعُ فِيهِ وَلَا يَسَلِّمُ لَهُ) وَلَمْ يَقُلْ: وَلَا يَسَلِّمُ بِهِ لَهُ.

وَقَالَ الْجَرَجَانِي (الوساطة بين المتبني وخصومه ٣): (صَارَ قَوْلُكَ بِرَهَانِيًّا مُسَلِّمًا) وَلَمْ يَقُلْ: مُسَلِّمًا بِهِ.

وَقَالَ أَبُو الْبَرَكَاتِ الْأَنْبَارِيُّ (أسرار العربية ١٢٦): (وَلَوْ سَلَمْنَا صِحَّتَهُ) وَلَمْ يَقُلْ: وَلَوْ سَلَمْنَا بِصِحَّتِهِ.

وَقَالَ الْحَرِيرِيُّ (درة الغواص ٣٠/٢): (فَإِنْ قَلَّتْ شَرْطُ قَطِّ أَنْ تَسْتَعْمَلَ بَعْدَ النَّفْيِ قَلَّتْ: أَوْ لَا لَا نَسَلَّمَ ذَلِكَ) وَلَمْ يَقُلْ: لَا نَسَلَّمَ بِذَلِكَ.

وقال ابن خلدون (مقدمة ابن خلدون ٤١٤): (ولو سلّمناه جدلاً) ولم يقل: ولو سلّمناه به جدلاً.

وقال ابن هشام الأنصاري (شرح بانت سعاد ١٥): (وأما الأول فلا نسلمه إلا بعد الوقف على ما قبله) ولم يقل: فلا نسلم به.

وقال السبكي (المزهر في علوم اللغة ٣٦٦): (وهذا مسلم) ولم يقل: مسلم به.

وقال بعضهم في النبي ﷺ (نفع الطيب ٥٥/١):

أَكْرَمَ بَعْبِدِ سَلَمَتِ تَقْدِيمَةِ الرُّسُلِ الْكِسْرَامِ

ولم يقل: سلّمت بتقديمه.

وقال الجاحظ (الحيوان ٢٥٥/٣): (فإن كان يعرف أثناءه وهو يجدها مع ذكر ضعيف وهو مسلم لذلك). وقوله (مسلم لذلك) الأصل فيه (مسلم ذلك)، وإنما اجتلب اللام في (لذلك) لتقوية العامل الذي ضعف وهو (مسلم) لأنه فرع في العمل كما هو معروف في علم النحو.

ومن شاء مزيداً من الشواهد أمكنه إن شاء الله أن يستخرجها من درة الغواص (٩٧/٢) ونفع الطيب (٢٧/٦) وبناء المقالة الفاطمية (ص ٣٤ و ٤٨ و ٦٧ و ١٥٦).

فعدة ما عندي من الشواهد ثمانية عشر شاهداً، أثبت منها اثني عشر وأحلت البواقي على موطنها.

٢ - قول العصريين: سلم به:

على أن الأعم الأغلب من أدباء العصور الحديثة يعنون (سلم) بالباء غير عالمين أنه يتعدى بنفسه. فمن ذلك قول أديب مهندس في بعض المجلات (وهذا أمر.. لا مناص من التسليم به ولا مجال لدفعه). فقال: من التسليم به والمختار: من تسليمه.

وقول أستاذ جامعي في بعض الكتب (والاختلاف بين المستويات اللغوية مسلم بوجوده) والمختار: مسلم وجوده. وقول أستاذة جامعية في الكتاب نفسه: (إذا سلمنا بصحة فرضية التمثيل) والمختار: إذا سلمنا صحة فرضية التمثيل. فإن قلت: أغلط تعدية سلم بالباء؟ قلت: لو تشددت لقلت هي غلط، ولو تسامحت لقلت هي لغة فصيحة ولكن تعدية الفعل بنفسه أفصح. فأما أنها غلط فلمخالفتها كلام القدماء الفصحاء وغير الفصحاء، ولرؤيتي إياها تحيا من طريق دفنها لغة حية أحسن منها. وأما أنها لغة فصيحة فلأن استعمالها الآن من قبل الخاصة والعامة يحوجنا إلى أن نجد ما يجيزها ويجعلها فصيحة أخذاً منا بالتدرج اللغوي. وإجازتها تكون بالحمل على المعنى. وهو أن الأفعال قد يحمل بعضها على بعض إذا تقاربت معانيها. فمن ذلك قوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة). فعُدِّي (يخالف) بـ(عن) لأنه حمل على (خرج). والمخالفة عن الأمر خروج عن الطاعة. وأرى أن الأصل في قولنا (سلمت رأيك) هو عددته سالمًا، أي سالمًا من العيب، وعدّه كذلك يؤدي إلى الاعتراف به، لذلك حمل (سلم) على (اعترف)، فقيل: سلمت برأيك وكان المراد: اعترفت برأيك. فمن أحب الأخذ بـ (سلم) متعدياً بالياء بعد الذي بينته، دون أن يرمضه موت لفظ مزدهر في تراثنا الأدبي والعلمي فله ذلك. على أنني أحب أن يستعمل المختصون بالعربية (سلم) متعدياً بنفسه ليبقى اللفظ حياً، لأن حياته تعيننا على فهم النصوص العربية القديمة التي يرد فيها هذا الفعل، ثم إن استعمالهم له يقيم توازناً بين لغة

فوانت أستاذ معاصر

١- أول الأخبار في استعمال المنجنيق: في هذه المجلة (العدد ٣٣ ص ٦٩) قول للأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله في المنجنيق كان في ضمن مقالة قرأها قبيل وفاته على أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو: (وأول الأخبار في استعمالها في الإسلام كان في سنة ٧٢ من الهجرة أيام حصر الحجاج لعبد الله بن الزبير بمكة). وذلك منه خطأ. والصواب أن سلمان الفارسي رضي الله عنه اتخذ للمسلمين منجنيقاً فكانت أول منجنيق عرفت في الإسلام. ونصبها النبي ﷺ على الطائف حين غزاها سنة ٨ للهجرة، وكان هو أول من رمى بها (أنساب الأشراف ١/٣٦٦). وكان عروة بن مسعود وغيد بن سلمة حينئذ في جرش يتعلمان صنعة المجانيق والدبابات والضبور (سيرة ابن هشام ١/٤٧٨)، ثم استعملت زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبيل فتح المدائن، وذلك في حصار بهرُسير سنة ١٥هـ. فحصرت شهرين ترمى بالمجانيق ويدب إليها بالدبابات حتى فتحت (تاريخ الطبري ٤/٥). والدبابة آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال وتقرَّب من الحصن المحاصر لينقبوه ويقهيم ما يرمون به من فوقهم. والضبور مثل رؤوس الأسفاط يتقى بها في الحرب عند الإنصراف.

٢- عبد الملك بن مروان وآل المهلب: قال الجاحظ في البيان والتبيين: (وقال رجل عند مسلمة: ما استرحنا من حائك كندة حتى جاء هذا المزونى) (١٩٩/٢)، وقال محقق الكتاب الأستاذ عبد السلام هارون في أسفل الصفحة: (يعني بحائك كندة عبد الرحمن بن الأشعث لأنه خرج على عبد الملك... والمزونى هو يزيد بن المهلب وكان أيضاً خرج على عبد الملك إلى أن ظفر به

مسلمة)، قلت: هذا خطأ، وإنما خرج يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك وليس على أبيه عبد الملك بن مروان. وقد كان المهلب وأبناؤه، ومنهم يزيد، يدينون لعبد الملك بالطاعة، وحاربوا الخوارج حرباً شديدة تثبيتاً لسلطانه حتى قضوا عليهم، إلا بقية تشذرت في أطراف البلاد تشذراً، وما نكث أحد منهم بيعته. وما زالوا على طاعتهم له حتى توفي سنة ٨٦هـ. وذلك معروف في كتب التاريخ والأدب.

٣- عثمان بن عفان وضابئ البرجمي: ورد ذكر ضابئ البرجمي في كتاب الحيوان (٣٧٠/١) وقال فيه محقق الكتاب الأستاذ عبد السلام هارون: (كتب مصحح الطبعة الأولى من الحيوان: اتفق أهل الأخبار أن ضابئاً كسر ضلع عثمان يوم الدار، وأن الحجاج قتل ضابئاً لما ولي العراق). هكذا، وكأنه ارتضى قوله، وهو خطأ. والصواب أن الذي كسر ضلع عثمان رضي الله عنه يوم الدار ابن ضابئ البرجمي واسمه عمير. وذلك أن ضابئاً كان هجاً ناساً واتهم أمهم بكلب بقوله في أبيات (الشعر والشعراء ٣٥٠/١):

فأمكم لا تركوهما وكابكم فإن عقوق الوالدات كبير

فحبسه عثمان ثم مات في سجنه. فلما قتل عثمان جاء عمير بن ضابئ فكسر ضلعاً من أضلاعه. ثم قتله الحجاج بفعله هذا، في خبر مذكور في تاريخ الطبري (٦/٢٠٧-٢٠٩).

تتبيه: هذه الفاتنة هي في الطبعة الأولى من كتاب الحيوان ولا علم لي بما أعقبها من طبع. فإن كانت تلوفيت في طبعة أخرى فعسى أن يستفيد فائدتي هذه من عنده الطبعة التي فيها الفاتنة. وتتبيهي هذا يصلح أيضاً للفائنتين الآتيتين. ولم أجد في خزانة كتب SOAS من جامعة لندن إلا الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

٤ - قولهم القاموس بمعنى المعجم: استعمل الجاحظ في كتاب الحيوان (١٥٦/٢) (المطرح)، فقال الأستاذ عبد السلام هارون (لعلّ المطرح ضرب من الحشايا ولم أجد لها شرحاً قاموسياً). أراد أنه لم يجد لها شرحاً في المعاجم. فاستعمل (قاموسياً) بمعنى (معجمياً) لاعتقاده أن لفظة القاموس تعني فيما تعنيه المعجم. والحقيقة أن القاموس اسم معجم ألفه الفيروزآبادي فلا يصح أن يقال لكل معجم قاموس، ولا يصح أن يقال قاموسياً في معنى معجمياً. فإذا قلت وجدت معنى الكلمة في القاموس دل قولك على أنك وجدته في القاموس الذي ألفه الفيروزآبادي لا في الصباح ولا المصباح المنير ولا غيرهما. فإن كنت تعني أنك وجدت المعنى في الصباح أو المصباح المنير أو غيرهما كان قولك خطأ، فلكل معجم اسم يسمى به، وأيضاً كلُّ من المعاجم يقال له معجم ولا يقال له قاموس. وهذا الغلط فاش بين الكتاب ونبه عليه غير واحد من اللغويين. وكنت تعلمت ذلك وأنا صبي سنة ٣٩ إذ نشر الشاعر معروف الرصافي مقالة في جريدة البلاد البغدادية يخطئ فيها الدكتور محمد مهدي البصير في أشياء منها استعماله القاموس بمعنى المعجم^(١).

٥ - حذف (أما): أنا مقدّم ههنا قولاً في (أما) لم أرَ قولاً في معناه في كتب النحو التي قرأتها:

قال الجاحظ في كتاب الحيوان (والوجه الآخر فلأن الليل موحش مخوف الجوانب). فلما حقق الأستاذ عبد السلام هارون الكتاب أضاف إلى أول عبارة الجاحظ (أما) فأصبحت: ((وأما) الوجه الآخر فلأن الليل موحش مخوف الجوانب) [٢٨٤/١].

(١) ممن وهم في ذلك الأستاذ الفاضل حسن الكرسي، قال في مقدمة معجمه (الهادي إلى لغة العرب) (٢٦): (والذي صنعت في قاموسنا الهادي يقوم على الاعتبارات التالية): وقال أيضاً في المقدمة (٢٩): (بعد أن بينا ما أحدثنا في قاموسنا من تطوير وتحسين).

وقال في (وأما): (زيادة يفتقر إليها الكلام)، هكذا، وقد أخطأ فيما فعل. فما في المخطوط هو كلام الجاحظ وهو صحيح، بل هو ذو بيان عال. و(أما) فيه محذوفة وتتهم من الغاء الدالة عليها، وينبغي تقديرها عند الإعراب. ونظير ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيما كتب به إلى أبي عبيدة: (... وعمرو فأوصيك به خيراً) (فتوح الشام ٤٢) والتقدير: وأما عمرو، وقول صعصعة بن صوحان: (إذا لقيت المؤمن فخالصه، وإذا لقيت الكافر فخالفه، ودينك فلا تكلمنه) (مجمع الأمثال ٣/٣٢٩)، والتقدير: وأما دينك. وممن اقتدى بأقوال الفصحاء من المولدين في حذف (أما) إبراهيم بن المهدي بقوله: (وكانت أم إسماعيل رومية، وأنا فلم تلدني رومية) (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ٢١٧) والتقدير: وأما أنا فلم تلدني رومية، ويوحنا بن ماسويه بقوله للوائق في شراب غير صاف قتم له: (يا أمير المؤمنين، أما المذاقات فقد عرفتها واعتدتها، ومذاقة هذا الشراب فخارجة عن طبع المذاقات كلها) (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ٢٤٦)، والتقدير: وأما مذاقة هذا الشراب. وكان المستشرق السنيور كرلو نلينو قال شيئاً هو بسبيل ذلك، فاستدركت عليه قوله في مجلة مجمع دمشق وجاء في آخر استدراكي قولي: (وقد وجدت في بعض النصوص ما يدل على جواز تقدير (أما) (مج ٦٠ ج ١ ص ٣٥) وأمست قلمي عن تفسير قولي لعدم الحاجة إليه، على أني فسرتة الآن ههنا، ولكل قول إيان.

وأزيد قائلاً: لم أر من القدماء الفصحاء المستشهد بلغتهم من يحذف (أما) من (أما بعد) فيقول (وبعد). ومع ذلك حذفها جماعة من المولدين، كالجاحظ، قال في بعض كتبه: (وبعد، فإن كل خلق فارق أخلاق الناس فإنه مضموم). وكالفيروزآبادي، قال في القاموس (١٠): (وبعد، فإن للعلم رياضاً). وعندني أن ذلك من التدرج اللغوي الصحيح.

انتهت المقالة، والحمد لله حمداً إن سكت عنه لساني لم يسكت عنه
جناني^(١).

(١) كنت في أثناء كتبي هذه المقالة كتبت من شفيلا إلى صديقي الأديب أحمد الملاونة فسي
الأردن راجياً إياه أن يثبت في بعض الشواهد اللغوية التي أثبتتها في المقالة، وهي
منقولة من دفاتر لي، ففعل ذلك مراراً، متكلفاً جهداً ومالاً، فجزاه الله عن لغة القرآن
خيراً.